جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

الشاعر والناقة
قراءة في الذات الشاعرة بين الأصالة والمعاصرة

The Poet And The Camel - A Reading In The Poet's Self Between Authenticity And Modernity

إعداد

د. أروى محمد أحمد الملا

أستاذ الأدب والنقد المشارك ،كلية الآداب ،

جامعة الملك فيصل

(العدد الرابع والأربعون)

(الإصدار الأول-فبراير)

(الجزء الثالث (١٤٤٦هـ /٢٠٢٥م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) *2536- 9083*
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٥/٦٢٧١م

الشاعر والناقة قراءة في الذات الشاعرة بين الأصالة والمعاصرة

أروى محمد أحمد الملا

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية.

البريد الالكتروني: *Arwa.kfu@hotmail.com*

ملخص

رنا هذا البحث إلى العلاقة بين الشاعر والناقة؛ يتغيّا الوقوف على كنهها، وسبر أغوارها، والسر في بقائها، فهي علاقة باذخة شامخة شموخ الناقة، فتناول البحث عبر المنهج الوصفي التحليلي التّحول الدلالي للناقة من مجرد مفردة صحراوية إلى ركن ركين في بنية القصيدة العربية القديمة، ورصد التحولات والمتغيرات التي طرأت عليها فنيًا وموضوعيًا في القصيدة الجديدة، والتي أسفرت عن خروج الناقة من حيز الوصف والرحلة في القصيدة القديمة إلى فضاء الرمز والعلامة في القصيدة الجديدة، وتحولها من وسيلة مواصلات فعلية تبلغه الممدوح، أو تسليه الهمّ إلى وسيلة مواصلات مجازية تصحبه في رحلة البحث عن ذاته المتشظّية، تعود به أدراجه إلى حيث تراثه، وهويته، وموطنه من رحلة التيه في عالم ضبابي لا يقيني.

الكلمات المفتاحية: الشاعر ، الناقة ، القصيدة ، الأصالة والمعاصرة.

The poet and the camel - a reading in the poet's self between authenticity and modernity

Arwa Muhammad Ahmed Almulla
Associate Professor of Literature and Criticism - College of Arts - King Faisal University

Email: *Arwa.kfu@hotmail.com*

Abstract

Rana this research to the relationship between the poet and the camel, it is intended to stand on its essence, and explore its depths, and the secret in its survival, it is a lavish relationship majestic glory camel, dealt with the research through the descriptive analytical approach semantic transformation of the camel from just a desert single to a corner corner in the structure of the old Arabic poem, and monitor the transformations and variables that occurred artistically and objectively in the new poem, which resulted in the exit of the camel from the space of description and journey in the old poem to the space of symbol and mark in the new poem, and its transformation From an actual means of transportation that informs him of the praised, or entertains him carefreely, to a metaphorical means of transportation that accompanies him on a journey in search of his fragmented self, he returns to where his heritage, identity, and home from the journey of wandering in a foggy and uncertain world.

Keywords: *Poet , Camel , Poem , Authenticity And Modernity*.

المقدمة

لا عجب أن تكون هناك علاقة بين الشاعر العربي والناقة، باعتبارها إحدى مفردات بيئته بل العجب أنها علاقة باذخة ممتدة عبر عصور القصيدة العربية واتجاهاتها وإطاراتها المختلفة، فهي علاقة متغلغلة في وجدان شاعرها، متأصّلة في ذاته، لا تُخلخلها أضواء الحضارة وأصوات الحداثة؛ فالناقة جذرٌ من جذور بداوة العربي، وملمحٌ من ملامح هُويته، عرفها قبل وقوفه على الطلل، صحبته وصحبها في حِله ورحلته، وشكّل من ملامحها صورةً وصفية وبلاغية، بكاها واستبكاها، واستمدّ منها أمثاله وتشبيهاته، حتى صارت وجهة ثقافية في حياته وملمحًا من ملامح عروبته وأصالته، وهي إلى يومنا هذا لا تزال حاضرةً مؤثرةً في بنية القصيدة وموضوعها، ونقول هذا على الرغم مما اعترى القصيدة العربية من تخبط وخلط منهجي في مسارها الجديد نحو التجريب؛ إذ طارت شعاعًا نحو أضواء الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي، لاهثةً وراء الشهرة وأضواء الكاميرا، ناسيةً، أو متناسيةً أن للشعر وظيفةً، وأن أفلاطون ما استبعد الشعراء من مدينته الفاضلة إلا لخيانتهم لوظيفة الشعر الحقيقية، حين صرفوا الناس إلى الهزل من القول، فضجّت الساحة بتجارب غير ناضجة بنار الرويّة، والذوق الفني، والوعي الجمالي، وأضحت الفرصة سانحةً لبعض الغثاء أن يُزاحم الدرّ في ساحة الشعر، ما أصاب عين القارئ بقذى تجارب تحسب أنها شعرٌ وما هي منه.

موضوع البحث وإشكالياته:

يأتي هذا البحث كحلقة وصل بين الأصالة والمعاصرة؛ يتغيَّا الوقوفَ على العلاقة الجدلية بين الشاعر والناقة قديمًا وحديثًا؛ لذا، جاءت عتبته الأولى: "الشاعر والناقة"؛ لتُحيل إلى مقاصده ودلالته المباشرة وغير المباشرة، تستكنه منزلة المعطوف في ذات المعطوف عليه، وتقارن –في الوقت نفسه– بين منزلتين: القديم والجديد من شعرنا العربي، وإذا كان التغيّر والتبدّل سنة الحياة وصبغة الوجود، فإن ثُمة تساؤلاتٍ

أثارت إشكالية البحث، وحددت ملامحه وخارطته التي تمثّلت فيما يأتي:

١- كيف انتقلت الناقة من حيز التجريد إلى صدر القصيدة؟

٢- ما المنزلة التي شغلتها الناقة من فكر الشاعر ووجدانه؟

٣- كيف بدت الناقة في منظور الشعر العربي قديمًا وحديثًا؟

٤- هل احتفظت الناقة بالمنزلة نفسها في القصيدة الجديدة أم تخلخلت مكانتها؟

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث في جِدة موضوعه، وسعيه لاستجلاء صورة الناقة ومنزلتها في الشعر العربي بين القديم والجديد _لا سيما_ وقد غيرت الحضارة موضعها في البيئة، وحولت مستجدات الحياة نظرة الإنسان إليها.

أهداف البحث:

تتبلور أهداف البحث في إيجاد إجابات لتساؤلاته؛ إذ يتم من خلالها استكناه العلاقة بين الشاعر والناقة قديمًا وحديثًا عبر دراسة مقارنة لنصوص شعرية عربية قديمة وسعودية حديثة، تقف من خلالها على الوظيفة الموضوعية والفنية للناقة وصورتها في الشعر السعودي الحديث.

منهج البحث:

سار البحث في ضوء المنهج الوصفي التحليلي؛ حيث يصف الظاهرة ويقف على تجلياتها، ويرصد المتغيرات الفنية والموضوعية التي اعترتها، والتي يمكن من خلالها استجلاء غموض الظاهرة وفك مغاليقها.

هيكل البحث :

جاء البحث في **مقدمة** ومحورين وخاتمة؛ بيانها كالآتي:

المحور الأول: (الناقة من التجريد إلى صدر القصيدة) تناول هذا المحور مفردة الناقة في معجم الشعر العربي، ووقف على التّحول الدلالي للناقة من مجرد مفردة

صحراوية إلى ركن ركين في بِنية القصيدة العربية.

المحور الثاني: (الناقة وتحولات القصيدة)، وهنا عرض للعلاقة بين الناقة والشاعر المعاصر، ورصد المتغيرات والتحولات التي طرأت عليها موضوعيًا وفنيًا.

الخاتمة: وفيها نتائج البحث وما توصل إليه.

المحور الأول

(الناقة من التجريد إلى صدر القصيدة)

لعل العربي القديم لم يأنس لحيوان أنسه للناقة، ولم يكرم حيوانًا تكريمه للإبل، اتخذها مصدرًا لغذائه، ووسيلةً لمواصلاته، ومفردةً من مفردات حروبه وسلامه، وأنيسًا يحاوره وصديقًا يؤنسه في حله وارتحاله، ومظهرًا من مظاهر فخره وغناه، استمد منها تشبيهاته وصوره في كرمها، وسرعتها، وقوتها، وكذلك في صوتها ولونها، حتى أعضائها كانت حاضرةً في شعره وسائر كلامه، وكيف لا؟! وهي الحيوان الوحيد الذي وجد فيه العربي بغيته من زكاء اللحم وذكاء الفطرة، ومن الصبر على الجوع وتحمّل العطش، ومن احتمال حر الصحراء وحرورها، ومن قلة استهلاكها لمواردهم، ووفرة إنتاجها من اللحم واللبن والوبر، ما يجعلها غنيمة اقتصادية مثالية في بيئة فقيرة معدمة؛ لذا استكثروا منها، حتى صارت مظهرًا من مظاهر الثراء، وعلامة من علامات الشرف والسؤدد، فعرفت الجزيرة كثيرًا ممن كانوا يملكونها بوفرة، فممن كان يضرب بهم المثل في التّأبيل: "حنيف الحناتم" إذ كان آبل الناس، و"مالك بن زيد بن مناه" كان آبل أهل زمانه، و"ابن جامع" كان ذو إبل لا تُحصى"[1]، فكانت الإبل مالًا وعمادًا للحياة، يقول الأعشى مخاطبا كسرى حين أراد منهم رهائنًا:

لَسْنا كَمَنْ جَعَلَتْ إيادٌ دَارَهَا تَكْرِيتَ تنظُرُ حَبَّهَا أنْ يُحْصدَا

قَومًا يُعالجُ قُمَّلًا أبناؤهُمْ وَسَلاسِلًا أجُدا وبابًا مُؤصدَا

(١) انظر: أنور عليان أبو سويلم: الإبل في الشعر الجاهلي، دراسة في علم الميثولوجيا والنقد الحديث، دار العلوم، الرياض، ١٤٠٣هـ، ج١، ص١٨.

جَعَــلَ الإلَــهُ طَعَامَنــا فِــي مَالِنــا رِزْقًــا تَضَــمنَهُ لنــا لَــنْ يَنْفَــدا

مثْــلَ الهِضَــابِ جَــزَارَةً لِسُــيوفِنا فــإذا تُــرَاعُ فَإنّهــا لــن تُطْــرَدَا

ضَــمِنَتْ لَنــا أعْجــازُهُنَّ قُــدورَنا وضُــروعُهنَّ لنــا الصَّــريحَ الأجْــردَا

فَاقْعُــدْ عَليْــكَ التَّــاجَ مُعْتَصِــبًا بِــه لا تَطْلُــبَنَّ سَــوامَنا فَتَعَبَّــدا

فَلَعَمْــر جَــدِّكَ لَــوْ رَأَيْــتَ مَقامَنــا لَرَأَيْــتَ مِنَّــا مَنْظَــرًا وَمُؤيَّــدًا[1]

يفاخر الأعشى ببداوته، ويسمو بها على فلاحة (إياد)، فيقول لكسرى: أظننتنا حراثين أذلّاء كـ (إياد)، قد اتخذوا (تكريت) دارًا ومستقرًا، فهم لاصقون بأرضهم ينتظرون الحصاد؟!! خاملون يقطعون الوقت في معالجة القمل المنتشر في أبدانهم، وقد أوثقوا بالسلاسل، وغُلِّقتْ دونهم الأبواب، فليس هذا شأننا؛ إذ جعل الله طعامنا في الإبل، نرحلها حيث نشاء، رزقٌ لا ينفد، ضخمة كالهضاب، نعقرها بسيوفنا للضيفان، لا يطردها مُروِّعٌ، أو مغير، قد ضمنت أعجازها قدورنا أن تفرغ، وضمنت ضروعها لنا اللبن خالصًا صافيًا، فاقعد عليك تاجك معتصبا به، ولا يسمنا الذل والاستعباد؛ فما نحن بغافلين عن كيدك، ولا نحن بمن يرهبون التهديد، فلعمر جدك لو رأيتنا حيث نقيم، لرأيت منا منظرًا يروّع، وقوة لا تلين، فالعربي الذي استمد قوته من

(١) ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح وتعليق: محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، د.ت، القصيدة رقم ٣٤، ص٢٣١-٢٣٣.

قوة إبلـه وصبغت طباعـه بطباعهـا، لا يرتضـي الـذل والصـغار، ولا يلـين لتهديـد، أو وعيد، وإذا كانت الإبل على هذه المنزلـة، فإنهـا –في الوقت نفسـه– كانـت سببًا فـي قيام الحروب وشن الغارات؛ طمعًا في سلبها وأخذها غنائمًا؛ ووسمت العرب إبلها بل "كانت تحاط بدفاع قوي متين، وتصدى أصحابها لصد المغيرين ودفعهم بالسلاح؛ محافظةً على مالهم وقوام حياتهم"(١)، يقول المسيب بن علس:

لَعَمْـرِي لَـئِنْ جَـدَّتْ عَـدَاوَةُ بَيْنَنَـا لَيَنْتَحِـيَنْ مِنِّـي عَلَـى الْـوَخْمِ مِيسَـمُ

فَأُقْسِـمُ أنْ لَـوْ الْتَقَيْنَـا وَأَنْـتُمُ لَكَـانَ لَكُـمْ يَـوْمٌ مِـن الشَّـرِ مُظْلِـمُ

رَأَوْا نَعَمًـا سُـودًا فَهَمُّـوا بِأَخْـذِهِ إذا التَـفَّ مِـنْ دُونِ الجميـعِ المُـزَنَّمُ

ومِـنْ دُونِـهِ طَعْـنٌ كَـأَنَّ رَشَاشَـهُ عَـزَا لـي مَـزاد والأسِـنَّةُ تَـرْذَمُ(٢)

فقصد الإبل من بين المال الراعية بمسمى النَّعَم، رغم شموله لصنوف الأنعام –كما يقول ابن منظور: "والنَّعَم: واحد الأنعام وهي المال الراعية، قال ابن سيده: النّعَم الإبل والشاة، وقال ابن الأعرابي: النعم الإبل خاصةً، والأنعام الإبل والبقر والغنم"(٣)، وإنما دلّت اللفظة على الإبل من خصه لها بالمُزَنّم، قال ابن منظور: "المزنم من الإبل:

(١) علي الجندي: شعر الحرب في العصر الجاهلي، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ط٣، ١٩٦٦م، ص١٢٥.

(٢) ديوان المسيب بن علس، تح: عبد الرحمن الوصيفي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٢٤-١٢٥.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، ج١٢، ص٥٨٥، مادة: نعم.

المقطوع طرف أذنها، قال أبو عبيدة: وإنما يفعل ذلك بالكرام منها. قال الجوهري: الزنمة شيء يقطع من أذن البعير فيترك معلقًا، وإنما يفعل ذلك بالكرام من الإبل"[١]، والمعنى نفسه عند امرئ القيس في قوله:

ألا إنْ لَا تَكُنْ إبِلٌ فمِعْزَى كأَنَّ قُرُونُ جِلَّتِها العِصِيُّ

وجَادَ لَها الرَّبيعُ بِواقِصاتٍ فآرامٍ وجَادَ لَها الْوَلِيُّ

إذَا مُشَّتْ حَوالِبُها أرَنَّتْ كأَنَّ الحَيَّ صَبَّحَهُمْ نَعِيُّ

فتُوسِعُ أَهْلُها أقِطًا وسَمْنًا وَحَسْبُكَ مِنْ غِنىً شِبَعٌ وريُّ[٢]

فذكر الإبل بمعنى الغنى وكثرة المال؛ لأنها أفضل أموالهم وأنفسها، بينما المعزى أدناها وأقلها[٣]ثم ذكر من أفضالها وخيراتها ألبانها الغزيرة الدسمة، وما يصنع منها من جبن وسمن، وما ينتج عنها من غنى وشبع وري، وإذا كانت الناقة "من خصال الشرف والمنافع والغناء في السفر والحضر، وفي الحرب والسلام وفي الزينة والبهاء وفي العدة والعتاد"[٤] فإن أي محاولة لإهانتها والتقليل من شأنها، أو مجرد التفكير في سلبها والسطو عليها سيُقابل بالحزم والدم، وقد ذكر لنا التاريخ كم كان العربي

(١) المرجع السابق، ج١٢، ص٢٧٥، مادة: زنم.

(٢) ديوان امرئ القيس، ص١٣٦.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٣٦.

(٤) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، ج٧، ص١٢٠.

يأنف من مزاحمة إبل غيره لإبله في المرعى، فها هو "كليب بن ربيعة" يرفض أن تورد إبل أحد مع إبله، حتى ضُرب به المثل في العز، فقيل: أعز من كليب وائل، وهنا تكمن شرارة إحدى أكبر حروب الجاهلية وأشرسها؛ إذ حدث أن كليبًا دخل على امرأته جليلة يومًا فقال لها: هل تعلمين على الأرض أمنع مني ذمّة، فسكتت ثم أعاد عليها الثانية فسكتت ثم أعاد عليها الثالثة، فقالت: نعم، أخي جساس وندمانه ابن عمه عمرو المزدلف بن أبي ربيعة بن ذهل... وكانت لجساس خالة اسمها البسوس بنت منقذ، جاءت ونزلت على ابن أختها جساس، فكانت جارة لبني مرة، ولها ناقة خوارة، ومعها فصيل لها، فلما خرج كليب غاضبًا من قول جليلة رأى فصيل الناقة فرماه بقوسه فقتله، وعلمت بنو مرة بذلك، فأغمضوا على ما فيه وسكتوا ثم لقي كلب ابن البسوس فقال له: ما فعل فصيل ناقتكم؟ فقال: قتلته وأخليت لما لبن أمه، وأغمضت بنو مرة على هذا أيضًا... ثم إن كليبًا أعاد القول على امرأته، فقال: من أعز وائل؟ فقالت: أخواي!

فأضمرها في نفسه وأسرّها وسكت، حتى مرت به إبل جساس وفيها ناقة البسوس، فأنكر الناقة ثم قال: ما هذه الناقة؟ قالوا: لخالة جساس، فقال: أَوَ بلغَ من أمر ابن السعدية أن يجير عليَّ بغير إذني؟ ارْمِ ضرعها يا غلام، فأخذ القوس ورمى ضرع الناقة، فاختلط دمها بلبنها.

وراحت الرُّعاة على جساس فأخبروه بالأمر، وولّت الناقة ولها عجيج حتى بركت بفناء البسوس، فلما رأتها صاحت: واذُلّاه! فقال جساس: اسكتي فلك بناقتك ناقة أعظم منها، فأبت أن ترضى حتى صاروا لها إلى عشر... ومع محاولات استرضاء البسوس ورفضها المستمر تشتعل أعظم حروب العرب [1]، وقد ينسى التاريخ أسماء كثيرٍ ممن

(١) علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم: أيام العرب في الجاهلية، المكتبة العصرية، لبنان، ٢٠٢٠م، ص١٤٣.

قتلوا فيها، لكنه لا ينسى ناقة البسوس المعروفة بـ "سراب" والتي ورد على اسمها المثل المعروف: "أشأم من سراب"(١)، ليبقى ذكرها علامةً فارقة مميزة في أيام العرب، تحفظ لنا سمة من سمات علاقة العربي بناقته ومنزلتها عنده.

وإذا كانت الحروب تُقام والدماء تراق لأجل ناقة، ما يعكس جانبًا من منزلتها لديه، فإن هذه المنزلة تزداد وضوحًا عبر بنية القصيدة الجاهلية التي اصطلحت على وضع الناقة في إطار الوصف كجزء من نسيجها وركن من أركان بنيتها، فقد بدت الناقة صديقة مؤنسة أكثر منها مطية يقطع بها الفيافي، ولعل البدوي يستشعر الملل فيجد فيها الأنس والتسلية، يمتطيها راحلًا فتكون هي الصاحب والرفيق، فلا يزال يحادثها تارةً ويصفها أخرى، يقول المثقب العبدي:

فَسَلِّ الهَمَّ عنكَ بِذَاتِ لَوْثٍ عُذَافِرَةٍ كَمِطْرَقَةِ القُيُونِ

بِصَادِقَةِ الوَجِيفِ كأنَّ هِرًّا يُباريها ويأْخُذُ بالوَضِينِ

كساها تَامِكًا قَرِدًا عَلَيها سَوَادِيُّ الرضِيحِ معَ اللِّجِينِ

إذَا قَلِقَتْ أشُدُّ لها سنافًا أمامَ الزَّوْرِ مِنْ قَلَقِ الوضِينِ

كأنَّ موَاقِعَ الثَّفِناتِ مِنها مُعَرَّسُ بَاكِراتِ الوِرْدِ جُونِ(٢)

---

(١) سعد بن شمس الميداني: مجمع الأمثال، تح: محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٧٢م، ج١، ص٣٩٠.

(٢) ديوان المثقب العبدي، تح: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، ١٩٧١م، ص١٦٥- ١٧٥.

إنها ناقة قوية شديدة، سريعة كأنما ينافسها في العَدْو قط يجذبها من حزامها، لها سنام مشرف ملبد بعضه على بعض، قد تغذت باللجين والرضيخ فقوي عودها واشتدَّ قوامها... ويستمر الوصف ليخرج لنا ناقةً مثاليةً في تكوينها وذكائها، قد كملت أوصافها ودقّت معانيها إلى الدرجة التي صارت بها تسلية تُنسي الهمومَ وتمحو الأحزان، ويزخر شعرنا العربي بهذه الصورة التي تخرج فيها الناقة عن حيزها المجرّد المحصور في صورة حيوان لا يتجاوز كونه وسيلة مواصلات إلى جدلية وجدانية تتجسّد فيها مشاعر الصداقة والأنس والود، فهي السبيل إلى دفع السأم وطرد الملل، صاحبٌ يُسلِّي صاحبه، ويدفع عنه الهموم والضجر، يقول: عمرو بن قميئة:

وكُنتُ إذا الهُمُومُ تَضَيَّفَتنِي قَرَيتُ الهَمَّ أَهْوَجَ دَوْسَرِيًّا[1]

ويقول عبيد بن الأبرص:

وقَدْ أسَلِّي هُمُومِي حِين تَحْضُرُنِي بجَسْرَةٍ كَعَلاةِ القَيْنِ شِمْلالِ

زَيَّافةٍ بِقُتُودِ الرَّحْلِ ناجِيَةً تَفْرِي الهَجيرَ بتَبْغِيلٍ وإرْقالِ[2]

إنها علاقة قلَّما تتكرر بهذا السمت والنعت بين الإنسان عامةً وضرب من المخلوقات، علاقة جديرة بالرثاء إن انقطعت، أو حال الدهر بين طرفيها، كما يقول عبيد بن الأبرص:

ولقَدْ أقْطَعُ السَّباسِبَ والشُّهْـ ـبَ على الصَّيْعَرِيَّةِ الشِّمْلالِ

(١) ديوان عمرو بن قميئة، تح: خليل إبراهيم العطية، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م، ص٦٤.
(٢) ديوان عبيد بن الأبرص، شرح: أشرف عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص١٠٣،

عَنتـــــرِيسٍ كأنَّهـــــا ذُا وُشُـــــومٍ أحْرَجَتْـــهُ بـــالجَوِّ إحْـــدى الليـــالي

ثـــمَّ أبْـــرِي نِحاضَـــها فَتَراهـــا ضَـــامِرًا بَعْـــدَ بُـــدْنِها كـــالهِلالِ

ذاكَ عـــيْشٌ رَضِـــيتُهُ وَتَـــولَّى كُـــلُّ عَـــيْشٍ مَصـــيرُه لِهَبـــالِ[١]

على أن وصف عبيد بن الأبرص لناقته بالصيعرية يقودنا إلى جذور ثقافية خلفتها الناقة في تراثنا النقدي، حيث يقول المسيب بن علس:

وَقَـدْ أَتناسَـى الهَـمَّ عِنْـدَ احْتِضَـارِهِ بِنـــاجٍ عَلَيْـــهِ الصَّـــيعَرِيَّةُ مُكْـــدِمِ

كُمَيْـتٍ كِنـازِ اللحْـمِ أوْ حِمْيَرِيَّـةٍ مُوَاشِـــكَةٍ تَنْفِـــي الحَصَـــى بمُلَـــثَّمِ

كأنَّ علَى أنْسَائِهِ عَذْقَ خَصْبَةٍ تَلَّـــى مـــن الكَـــافُورِ غَيـــر مُكَمَّـــمِ[٢]

فالمسيّب إذْ صرّح بأنَّ بعيره ذكرًا في قوله بـ (ناج)، وصفه بـ (الصيعرية) وهي صفة من صفات النوق دون الجمال، ويُقصد أنه جملٌ مُنَوَّقٌ ذَلولا قد أحسنت رياضته، وإذا كان المقام لا يسع؛ للوقوف عند المسألة في منظور النقد[٣]، فإن الشاهد يتلّخص

(١) ديوان عبيد بن الأبرص، ص٩٩.

(٢) ديوان المسيب بن علس، ص١٢٧-١٢٨.

(٣) انظر حول ذلك: عيار الشعر لابن طباطبا العلوي، ص١٥٩.

في حضور الناقة في نقدنا العربي القديم، الأمر الذي يؤكد قيمتها الثقافية في تراثنا، وهذه القيمة تتبلور في وضعها الموضوعي في صدر القصيدة القديمة ضمن مقدماتها بعد بكاء الديار والغزل، يتوسّل بها إلى موضوع القصيدة وغرضها الرئيس في الحزن، أو الحب، أو الفرار من الديار المهجورة، واللحاق بالأحباب الراحلين، والضيق بالدهر، والرغبة في رؤية الممدوح، فها هو عنترة يستوقفها للبكاءِ على الديار في قولِه:

دارٌ لآنسةٍ غضيضٍ طرفُها طوعِ العناقِ لذيذةِ المُتَبَسِّمِ

فوقفتُ فيها ناقتي وكأنَّها فَدَنٌ لأَقضيَ حاجةَ المُتَلَوِّمِ(١)

يقول: أوقفتُ ناقتي وحبستها على هذه الدار لأقضي حاجتي من البكاء فيها، والسؤال عن أهلها ثم شبهها في ضخامتها، وكمال خلقها بالفدن وهو القصر، وها هو علقمة يتوسّل بها راغبًا في رؤية الحارث بن أبي شمر الغساني، يقول:

إلى الحارثِ الوَهَّابِ أعْمَلْتُ نَاقَتِي لِكَلْكَلِها والقُصْرَيينِ وَجيبُ

لِتُبلِغَنِي دارَ امرئٍ كان نائِيا فَقَدْ قَرَّبَتْنِي مِن نداكَ قَرُوبُ(٢)

على أن الشاعر العربي لم يتفنن في الوصف كتفننه وتصرفه في صورة الإبل، فـ "نجح الفن الجاهلي في إقامة معرض ضخم للناقة، حرص فيه على رسمها بعناية

(١) ديوان عنترة بن شداد، ص١٨٤.

(٢) ديوان علقمة بن عبدة، شرح وتعليق: سعيد مكارم، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٤.

كبيرة تصوّرها في أوضاع متباينة شديدة التباين، وفي حالات متشابهة شديدة التشابه، ووفر لها في كل صورة حظًا واسعًا من الفن"(١)، وليس أدل على ذلك مما نجده في المفضليات، والأصمعيات، ومختارات الشعراء التي حفلت بهذا النوع من الوصف، كالذي أورده الأصمعي من قول خُفاف بن نُدبة:

ومُعَبَّـدٍ بَـيْضُ القَطـا بِجُنُوبِـهِ ومـن النَّـواعِجِ رِمَّـةٌ وصَـليبُ

نَفّـرْتُ آمِـنَ طَيْـرِهِ وسـبَاعِهِ ببُغَـامِ مِجْـذَامِ الـرّواحِ خَبُـوبِ

أُجُـدٍ كـأنّ الرَّحْـلَ فَـوْقَ مُقَلَّـصٍ عَـاري النَّواهِـقِ لاحَـهُ التقريـبُ(٢)

فذكر من صفات ناقته أنها من النواعج، يقصد لونها الأبيض، وقوامها مما يلي العظام، فهي كالقطاة خفة وسرعة، حتى إنها لتنفّر بسعتها كل آمن ساكن في سربه في طريقها، فإذا ارتدت إلى محلها كانت بغامًا شديدة الحنين إليه، مجذام الرواح سريعة وقت رواحها، تعدو خبوبًا لنشاطها وسرعتها، إنها واحدة من الإبل الأجد النشيطة والمكتنزة في الوقت نفسه، تشبه الحمار الوحشي في قوائمه العالية وعدوه السريع.

ولمنزلتها في نفوسهم وعزة مكانتها لديهم، فقد جعلوا نحرها للضيف معيارًا للكرم ومثالًا للسخاء لا يبلغه إلا عظيم شريف، يقول امرؤ القيس في طَريف بن مالك:

لَـنِعمَ الفتـى تَعْشُـو إلـى ضـوءِ نـارِهِ طَرِيـفُ بـن مالـكِ ليلـةَ الجُـوع والخَصَـرْ

---

(١) النويهي: الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، ص١٢.

(٢) أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي: الأصمعيات ، تح: عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ط١، د.ت، ص٢٣.

إذا البــازِلُ الكَوْمــاءُ راحَــتْ عَشــيّةً تُــلاوِذُ مِـنْ ضَـوْتِ المُبِسِّـين بالشَّـجَرْ[١]

فقد بلغ ممدوحه منزلةً عظيمةً من الجود؛ إذ هو في شدة البرد والصرّ يبذل أنفس ماله ناقة جلداء قوية، عظيمة السنام لسمنها، قد تغذت على ورق الشجر وراوغت راعيها فلا يستطيع حلبها، فهي كوماء تسرُّ الناظرين، وعلى الرغم من عظم شحمها ووفرة لحمها وجمال صورتها، فإنه لا يبخل بذبحها قرًى لضيفه، أو للسائل المحروم والبائس الفقير.

لذا نقول: إن حيوانا من حيوانات هذه البيئة لم يبلغ هذه المنزلة التي دفعت العربي حفظ نسب ناقته كحفظه لنسبه والفخر به، فالجاحظ يذكر لنا أن أكرم فحل للعرب يسمى عصفورًا، وتسمى أولاده عصافيرَ النعمان، يقول: "...وكان عصفور وزاعر وشاعر وذو الكباين من فحوة الإبل المعروفة، كانت لمالك بن المنتفق"[٢]، وحمل التاريخ أسماء بعض الإبل كـ "أبي حيّ": اسم للجمل الذي كانت عليه السيدة عائشة –رضي الله عنها– في وقعة الجمل[٣]، و"الدّهيم": اسم ناقة عمرو بن الزبان التي حمل عليها رؤوس أولاده ثم سميت الداهية بها، وعليها ورد قولهم في المثل: "حمل الدهيم وما تزبى"[٤] و"القصواء، أو الجدعاء والعصباء": ناقة الرسول – ﷺ –،

(١) ديوان امرئ القيس بن حجر، تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٤م، ص١٤٢.

(٢) انظر: الجاحظ: الحيوان، ج٥، ص٢٣٣.

(٣) انظر: لسان العرب، ج١١، ص١٢٤، مادة (جمل).

(٤) الميداني: مجمع الأمثال، ج١، ٢٠٥.

وكان في طرف أذنها جدع، وكانت لا تسبق كلما دفعت في سباق[١]، و"رجيع": اسم ناقة جرير، ذكرها في قوله:

إذا بَلَّغَتْ رَحْلِي رَجِيعٌ أَمَلَّها نُزُولِي بالمَوْماةِ ثُمَّ ارْتحَالِيا[٢]

كما نسبت بعضها إلى قبائل تعرف بها، وربما تسمت بعض المدن بأسمائها وأماكنها، كـ "المربد" وهو الموضع الذي تحبس فيه الإبل، ومنها: مربد البصرة[٣]، بل، إنهم اشتقوا من موضع بروكها لفظة "البركة" بمعنى الخير المقيم، قال ابن منظور: "البركة: النماء والزيادة، يُقال: بركت عليه تبريكا أي قلت له بارك الله عليك، وبارك الله الشيء، وبارك فيه وعليه: وضع فيه البركة.. وهو من برك البعير إذا أناخ في موضع فلزمه"[٤].

على أن هذه المنزلة زادت قوةً وازدادت متانةً بعد نزول القرآن الكريم؛ إذ لفت أنظار العرب وغيرهم إلى جميل خلقها وبديع تكوينها، فقال: (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)[٥]، وضرب بها المثل في قوله _تعالى_: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)[٦]، ومع تقدم عجلة الزمن تقدمت العلاقة بين العربي وإبله، فلم تنل غير التعظيم والوقار، ما جعل النويري يقول في حقها: "إن الله _تعالى_ لم يخلق نعمًا خيرًا من الإبل إن حملت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حلبت أروت، وإن

(١) شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١٠، ص١١١.
(٢) محمد إسماعيل الصاوي: شرح ديوان جرير، مطبعة الصاوي، مصر، ط١، د.ت، ص٦٠٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ج٣، ص١٧١، مادة (ربد).
(٤) لسان العرب، ج١٠، ص٣٩٥-٣٩٦، مادة (برك)
(٥) سورة الغاشية : آية١٧.
(٦) سورة الأعراف: آية ٤٠.

نحرت أشبعت"[1]، ويحفل ديوان الشعر الإسلامي بشواهد تسجل وتوثق هذه العلاقة، نسوق منها ما موطن شاهد لحسان بن ثابت –رضي الله عنه– في غزوة الغابة المسماة بغزوة قَرَد[2] حين أغار عيينة بن حصن الفزازي في خيل من غطفان على لقاح للنبي – ﷺ –، يقول:

هَـــلْ سَـــرَّ أوْلادَ اللَّقِيطَـــةِ أنَّنَـــا سَـــلْمٌ غَـــدَاةَ فَـــوارِسِ المِقْـــدَادِ

كُنَّـــا ثَمانِيـــةً وكَـــانوا جَحْفَـــلًا لَجِبًـــا فَشَـــكُّوا بالرِّمـــاحِ بَـــدادِ

لَـوْلا الَّـذِي لَاقَـتْ وَمَـسَّ نُسُـورَها بِجُنُـــوبِ ســـايَةَ أمْـــسِ بـــالتَّقْوادِ

كَـــلَّا وَرَبِّ الرَّاقِصـــاتِ إلـــى مِنًـــى والجَـــائِبِينَ مَخَـــارِمَ الأطـــوادِ[3]

يُحيل الشاهد إلى غيرة الرسول – ﷺ – على لقاحه ذوات الألبان، وفزعة صحابته له، يغزون بني حصن بن حذيفة، بينما انبرى "حسان" يسجل أحداث هذا الغزو، مؤثرًا الإبل بالقسم في قوله: (وَرَبِّ الرَّاقِصاتِ إلى مِنًى)، يقصد الإبل، تجوب

(١) شهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٣٥١هـ، ج١٠، ص١١٥.

(٢) انظر: ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي، وبدوي طبانه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م، ج٢، ص١٨٨.

(٣) ديوان حسان بن ثابت، شرح وتقديم: عبد الله مهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م، ص٧٣.

الطريق إذا قطعتها، والشعاب والأطواد تجيء وتروح فيها، وهو قسم يتكرر في شعر حسان، كما في قوله:

إنِّـــي وَرَبِّ المُخيّسَـــاتِ ومَـــا يَقْطَعْـــنَ مِـــنْ كـــلِّ سَـــرْبَخٍ جَـــدَدِ

والبُـــدْنَ إذْ قُرِّبَـــتْ لِمَنْحَرِهـــا حَلْفَـــةَ بَـــرِّ اليمـــينِ مُجْتَهِـــدِ

مـا حُلْـتُ عَـنْ خَيـرِ مَـا عَهِـدتِ ولا أَحبَبْـتُ حُبِّـي إيَّـاك مِـنْ أحـدِ[1]

فأقسم برب المخيّسات، وهي الإبل المذللة، تقطع الأرض الواسعة بعيدة الأرجاء لا يُهتدى فيها لطريق، وبالبدن تُهدى إلى مكة تُنحر برّا بيمين الحالف، وتستمر علاقة الشاعر بناقته عبر عصور الأدب وتاريخه، فيشهد العصر الأُموي على هذه العلاقة وامتدادها، فها هو "مالك بن الريب" يتوعّد الحارث بن حاطب، يقول:

فـــإنِّي سَـــوْفَ يكفِينـــكَ عَزْمِـــي وَنصِّـــي العـــيسَ بالبلـــدِ القِفـــارِ

وعَـــنْسٌ ذاتُ مَعْجَمـــةٍ أمـــونٌ عَلَنْـــداةٌ مُوثَّقَـــةُ القَفـــارِ

تَزِيـــفُ إذا تواهقـــت المطايـــا كمـــا زافَ المشـــرِّف للخطـــار

وإنْ ضـــربْت بلَحييهـــا وعامـــت تفصَّـــمَ عنهمـــا حَلَـــقُ السِّـــفار

(١) المرجع السابق، ص٧٤.

مِراحًـــا غيـــرَ مـــا ضِـــغْنٍ ولكـــنْ لجاجًـــا حـــين تشـــتبهُ الصّـــحاري

إذا مـــا حـــالَ روضُ رُبـــابِ دُرنَـــا وتثلـــثٍ فشـــأنكَ بالبَكـــاري[1]

تشكل الناقة درع الشاعر وسيفه الذي يبلغه الظفر على عدوه؛ لذا، فهو يفاخر بوصفها ناقةً قويةً غليظةً ذاتَ سمنٍ وقوةٍ وبقيةٍ في السير، تسرع في تمايل، وتمد عنقها في السير تباري غيرها، لها حصار فوق سنامها يشده فكأنه جزء منها، فإذا جاب بها القفار والأمصار بلغته في غير جهد ولا إجهاد.

وهي العلاقة نفسها في العصر العباسي، نلمسها في قول المتنبي:

يَـــا حـــادِيِيْ عيسِـــها وأحْسَـــبُني أُوجَـــدُ ميْتًـــا قُبَيْـــلَ أفْقِـــدُها

قِفَـــا قلـــيلًا بهـــا عَلـــيّ فـــلا أقَـــلّ مِـــنْ نَظْـــرَةٍ أُزَوّدُهـــا

لا نَـــاقَتِي تَقْبَـــلُ الرّدِيـــفَ ولا بالسّـــوْطِ يَـــوْمَ الرّهـــانِ أجْهِـــدُها

شِـــرَاكُها كُورثهَـــا وَمِشْـــفَرُها زِمامُهـــا والشُّسُـــوعُ مِقْوَدُهـــا

أشَـــدُّ عَصْـــفِ الرّيـــاحِ يَسْـــبُقُه تَحْتـــيَ مِـــنْ خَطْوِهـــا تَأوّدُهـــا

(١) ديوان مالك بن الريب، حياته وشعره، تح: نوري حمودي القيس، مستل من "مجلة معهد المخطوطات العربية، مج١٥، ج١، ص٧٥-٧٦.

فـــي مِثْـــلِ ظهْـــرِ المِجَـــنْ مُتّصِـــلٍ بمِثْـــلِ بَطْـــنِ المِجَـــنّ قَرْدَدُهـــا

مُرْتَمِيـــاتٌ بِنـــا إلـــى عُبَيـــ ـــدِ اللهِ غِيطَانُهـــا وفَدْفَـــدُها[1]

هذه الخصوصية التي اختصت بها الإبل دون غيرها هي الإكسير الذي سنح لهذه العلاقة أن تستمر، وأن تبقى ممتدة شامخةً عبر عصور القصيدة، تحتفظ بمكانها في صدر القصيدة وبمكانتها في وجدان الشاعر، إنها قسيمة حياته وشريكة رحلته، يتفنن في وصفها وترسيم ملامحها، ويتغزّل في قوتها وسرعتها، تصحبه حيث حل وارتحل، تؤنس وحشته، تطعمه وتحمله وأهله وضيفه، تحمي بيضته وتقهر عدوه... إنها عنوان هويته وصورة ثقافته، فهل بقيت العلاقة نفسها قائمةً بعد قدوم الحضارة التي غيّرت وجه الأرض كما غيّرت شكل القصيدة وموضوعها، وبعدما تبدلت أحوال العربي فهجر الصحراء وخيامها إلى المدينة وقصورها، بعد أن غزت المدنية ثقافة الشاعر، وأثرت في تجربته الشعرية، أم لا تزال صامدةً ثابتةً في وجه تلك المتغيرات وهذه التحولات؟!!

(١) ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص٨.

المحور الثاني

(الناقة وتحولات القصيدة)

أمام التحديات التي يشهدها ويعيشها إنسان العصر الحديث، والتي فرضت نفسها على القصيدة شكلًا ومضمونًا، كما أصبحت القصيدة تعبيرًا فنيًّا عن حدة الأزمات المصيرية التي تواجه الإنسان، إنها انعكاس لما تحسه الذات المبدعة من تهديد بالذوبان والتلاشي نتيجة غموض حركة الواقع ومجراها، وتفتت القيم وتمزق الثوابت والمبادئ وتشظي المنطق، وتأتي كفعل إبداعي يُعيد النظر في كل شيء، يدعو إلى قراءة مشكلات العصر، وتأسيس ذائقة جديدة ووعي جمالي جديد عبر تقنياتها التي تستند إلى جماليات التفكك والتشظي بدلًا من جماليات الوحدة والترابط، ولم تعد تحتفي بالوزن ولا القافية ولا بتنميق اللغة وزخرفة البديع، وإنما رؤية ضبابية كعالمنا الغامض، فاللغة إشكالية في حد ذاتها، والمجاز متمرد على قواعده وقوالبه، حتى موضوعها صار إشكالية في ذاته حين تحول إلى فلسفة تحاول تجسيد لا يقينية العالم إلى رثاء للإنسان الممزق التائه في عالم متردٍ إلى رحلة من البحث عن الوعي الذي يمكن من خلاله إيقاظ القارئ وتبصرته وإثارة تساؤلاته، بل واستفزازه للاحتجاج على وضعه القلق المتوتر في بحثه عن ذاته إلى لغز محير يحاول بكل عناصره ومفرداته أن يعبّر عن حساسية جديدة، وذوق فني جديد، وعلى الرغم من هذه التقنيات الجديدة في ظل قصيدة ضبابية تثير التساؤلات ولا تلتفت إلى مكان، أو زمان، ولا شخصيات وأحداث، تأتي الناقة إشكالية في ذاتها؛ تستدعيها القصيدة كلما استشعرت قلق هويتها، تشكّل عبرها ومن خلالها تناصات تستنفر وعي القارئ نحو جذوره ومنابته، تكسر بها حاجز الزمن، وتلملم من خلالها شظايا المكان والإنسان، يقول جاسم الصحيح:

ها أنا شمّرت عن قلبي وجرّدت لهاتي

وتشظيت جنونًا.. أدبًا.. حبًا..

تشظيتُ فما يجمعُنِي الرَّاوي

لقد ضاعتْ شظاياي على كلِّ الجِهاتِ

والنياقُ العربات

تساقطنَ على قارعةِ (الضاد)

فهل ناقةٌ تحملُنِي نحوَ فتَاتِي؟

رُبَّمَا

تجمعُنِي الصَّحراءُ

من بينِ مزاميرِ الرُّعاةِ![١]

يصوّر الشاعر عالمه الحافل بالاضطراب بأحاسيس الضياع وفقدان الشغف وسط تموجات عاطفية من شأنها أن تولد المفارقات؛ فالتّشظي وضياع الشظايا في كل الجهات يجسّد معاناة إنسان العصر التائه في عالمه الضبابي البهيم، عالم تشعر فيه الذات بتلاشيها، وفقدان هويتها، وطمس معالمها، حيث تصبح الحاجة ماسة إلى ضوء يهدي حيرته ويزيل ضبابية بصيرته، لكن حاجته إلى هذا الضوء لا تقل عن حاجته إلى الوثوق به والاطمئنان إليه؛ فكل ما حوله صار ضبابيًا خادعًا، ونفسه الممزقة التائهة لم تعد تحتمل التجريب والمحاولة _لا سيما_ مع تعدد مزامير الحداثة، وأضواء تيارات الثقافة الغربية الموهمة بالحضارة وما هي في الحقيقة إلا فخاخ تزيد الفجوة بين الإنسان العربي وهويته، وهنا، يظهر وعي القصيدة المعاصرة بقضيتها، فتلهث نحو التراث؛ تبحث عن أصالتها وتفتش عن جذورها المستقرة في الصحراء، وهنا، تظهر "الناقة" كمنارة وحيدة وسط ظلام دامس، علامة وركيزة ثابتة يمكنه الوثوق بها، والاهتداء بضوئها، هي السفينة القادرة على حمله والعودة به إلى

---

(١) جاسم الصحيح، الأعمال الشعرية الكاملة، مج٢، ص٢٢٧-٢٢٨.

هويته، واكتشاف موقعه على الخريطة الإنسانية، حيث يمكنه لملمة ذاته المتشظية واكتشافها من جديد، يقول ناجي حرابة:

المَدامِعُ

ترحلُ فِي عمقِنا كالمطَايَا التي جاسَتْ البِيدَ

تبحثُ عنِ وطنٍ أخضَرٍ

أوْ طَلَلٍ(١)

تشكّل الناقة مرجعيةً تراثية تستقر في وعي الشاعر، يبحث من خلالها عن جذوره، ويرتد بها إلى حيث هويته؛ فشعوره بالتيه وسط تموجات العصر؛ دفعه للارتداد وراء حيث الوطن الأخضر، منطقة الثبات التي يمكن الوثوق بها في ظل عالم أشبه بسفينة عائمة تائهة مهددة، ويبدو أن هذا الارتداد جاء بعد رحلة بائسة من محاولات الانفلات والهروب من نعرات التقليد والجمود التي ضجّت بها حناجر الحداثة التي سرعان ما انكشفت حقيقة سرابها الخادع، وخفتت أضواؤها اللامعة، يقول جاسم الصحيح:

هـذِي هِـي الصـحراءُ.. أم رِمالُنَـا حيــث الرِّمــالُ سُــلالَة ودمَــاء!

وكأنَّمــا السَّــارِي أضــاعَ دُرُوبَــه حيــث النجــومُ تخونُهــا الأضــواءُ

وكأنَّمــا البــدويُّ فــي مَــوج الفَــلَا فلــكٌ علــى سَــفرٍ.. ولا مينــاء!

كم في ليالِي البردِ أنكره الغضا وقسَـتْ عليـهِ الصَرصـرُ الهَوْجَـاء

(١) ناجي حرابة: سفر في الذوات، خيمة المتنبي، الهفوف، ط١، ١٤٤٢هـ، ص٢٠.

فارتــدَّ ناحيــةَ القبيلــةِ مِثلَمَــا عــادتْ إلــى نَغمَاتِهــا، الأصْــداءُ

أَ تُرى اكتفَى البدويُّ من ترحَالِه أمْ ضــللتْهُ (الناقــة) العَرجَــاء؟

أ تُرى اكتفَى البدويُّ من ترحَالِه أمْ ضــللتْهُ (الناقــة) العجفــاء؟

أ تُرى اكتفَى البدويُّ من ترحَالِه أمْ ضــللتْهُ (الناقــة) العميــاء؟[1]

لم تكن رحلة البحث عن الذات، واسترداد الهوية بالرحلة السهلة بل كانت مُضنية مجهدة، رحلة من الاغتراب النفسي الذي عاشه إنسان العصر متألمًا من شعوره بالضياع والتلاشي والعجز واللامعنى؛ لذا، فإنه ما إن يعثر على نفسه، ويُلملم ذاته، إلا وتُقدّم تجربته وعيًا فلسفيًا، أقرب ما يكون من الحكمة التي هي في الحقيقة استخلاص لتجربته، والشاعر هنا ينقل لنا هذه التجربة، تجربة التيه والاغتراب، فالعربي الذي خانته أضواء الحضارة الغربية البراقة فراح يطارها كصبي يطارد فراشة منخدعًا بلونها دون وعي بتدنِّي قيمتها، يبدو أنه فقد طريق العودة إلى حيث جاء، ويبدو أنه فقد مع فقدانه الطريق أشياءً أخرى لا تقل أهمية عن فقدانه الطريق، فقد فَقَدَ هويته حين طمست معالمها، واختلطت بثقافات غربية غريبة مهمّشة، فقد عاداته وتقاليده، وكثيرًا من قيمه الاجتماعية حين انخدع بسراب مسميات الحضارة والمدنية، فقد ذاته وسمته، فلا غرو أن يعيش إحساس الضياع والانمياع، ولا غرو أن يعود

(١) جاسم الصحيح، الأعمال الشعرية الكاملة، مج٣، ص٧٢-٧٣.

أدراجه يفتش عن كنهه وذاته؛ لذا، لا مفر من الارتداد نحو القبيلة؛ حيث جذوره وتراثه، فهل تعلّم العربي الدرس؟! هل اكتفى من ترحاله وتغريده خارج السرب؟!! هل أدرك الفرق بين ناقته العربية الأصيلة، ونياق الغرب الغريبة العرجاء العجفاء العمياء؟!!!

يقول الثبيتي:

إنْ كنتُ أبحرتُ في عينيكِ مُنتجِعًا
وجهَ الرَّبيعِ، فمَا ألقيتُ مَرساتِي
هذا بعيري على الأبوابِ منتصبًا
لم تعشْ عينُهُ أضْواءَ المطارَاتِ
وتلكَ فِي هَاجِسِ الصَّحراءِ أُغنيَتِي
تُهدهدُ العشقَ في مرعَى شويهاتي(١)

إن إدراك العربي ووعيه بتراثه وتمسكه به لا يتعارض ولا يمكن أن يتعارض، أو يكون عقبةً أمام سعيه نحو الحضارة، والعصرية، ومناشدة المدنية والتقدم؛ فلا قطيعة بين التراث والمعاصرة؛ لذا نقول: "لكي تكون عصريًا لا بد أن تحدد موقفك من التراث، كما أنك لا تستطيع أن تفسّر نوعية موقفك من التراث إلا من خلال فهمك لمغزى هذا التراث بالنسبة لظروف الحياة الراهنة"(٢)، وعليه، فإن وعي الشاعر المعاصر بتراثه وقيمته يشكّل المخرج الأهم من مرحلة التيه هذه، ويتطلّب الوعي علاقةً ثنائيةً تتكئ على الحضارة الإنسانية المعاصرة مع التراث ومعطياته في الوقت نفسه، فالتراث

(١) محمد الثبيتي: الأعمال الكاملة، الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص ٢٠٣.
(٢) عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط٥، ١٩٩٤، ص١١.

ضرورة لازمة دونها يضل إنسان العصر طريقه نحو هدفه السامي في البقاء أمام عواصف الحداثة وأعاصير الانفتاح، وقد تجسد وعي الشاعر السعودي المعاصر بهذه الثنائية، فهو يتمسّك بالتراث، يدرك قيمته، ويعي قدره وضرورته، يقول: جاسم الصحيح:

ذكرتــكَ تُطعِــم الصــحراءَ خــيلًا وتُســـقِيها فـــوارسَ غاضـــبِينَا

ومـا انتفضـتْ بِـي الـذِّكرَى، ولكـن رأيـــتُ نياقَهـــا تَلِـــدُ الحَنِينَـــا

لقــد خَنَــا القصــيدةَ فــي عُلاهــا وحَاشَـــاهَا القصـــيدةُ أن تَخونَـــا

تناسـلَ بينَـا (عمـرُو بـن هنـد) فكُنَّـــا مـــا أَبيـــتُ بـــأنْ تكونَـــا

(إذا بلـــغَ الفِطـــامُ لنَـــا صـــبي) ســـلَخنَا مِـــن مَلامِحِـــه، الجبِينَـــا

خرجْنـا منـكَ... مـن لُغَـةِ التَّحـدِّي كنَهـــرِ ضـــيّع المجـــرَى الأمِينَـــا

وسِـــرْنا فِـــي فَضـــيحتِنا عُـــراةً نُـــرَاوِغُ فـــي شَـــوارِعنَا العُيونَـــا[1]

تأتي الناقة إحدى مفردات هذا التراث، وتستدعي الحنينَ إلى مواطن الذكريات، كما تمثّل حلقة الوصل بين الجذور وفروعها، وتؤكد علاقة الشاعر بموروثه الذي لا

(١) جاسم الصحيح، الأعمال الشعرية الكاملة، مج٣، ص٣١٠-٣١١.

يمكن إنكاره، أو بتره، ويستدعيها الشاعر ضمن جملة التراث، ويستحضرها مع الصحراء وخيولها وفوارسها؛ ليكمل بها المشهد، ويسد بها الفجوةَ بين الماضي والحاضر، إنها المطية التي يمكن بها تجاوز المحنة واجتياز مخاوفها، يقول جاسم عساكر:

قمْ نحتفل.. نستنهض الذكرى تمدُّ ظِلالها في طيفها نستحضرُ الأجدادَا

حملوا المنون على المتونِ وأرخصُوا من أجلِكَ الأرواحَ والأجسادا

أقواتُهم تمرٌ وكل متاعِهم جمل يَخِبُّ وهودجٌ يتهادَى

أكرمْ بهمْ نفرًا على طُرُقِ الفِدَى لبسُوا البَسَاطةَ عدةً وعتادًا

لكنهم زَرعُوا القِفارَ رجولةً لاقَى العدوُّ بها العنيدُ عنادًا[1]

إن حرص "عساكر" على توظيف "الجَمل" بهودجه ومشيته ضمن المشهد، ويؤكد على قيمته التراثية، ودوره الدلالي في الصورة كرمز للعزة والشموخ، كما يتجاوز صورته المجردة إلى إرث فكري وروحي يستدعي ما تراكم في الذاكرة من تقاليد وعادات وتجارب وخبرات الأجداد، ليبدو أيقونةً تتوسط ثقافتنا وهويتنا العربية، يقول محمود عارف:

(١) جاسم عساكر: أطواق الشوك، نادي المنطقة الشرقية، الدمام، ط١، ٢٠١٤م، ص١٣٣-١٣٤.

هنـــا هنـــا.. مضـــاربُ الصـــحراءِ ناهيـــكَ مهـــد العـــرب العربـــاء

....

وفـــي الـــدُّجى يَـــنعمُ بالإغفَـــاءِ إذا صَـــــحَا يصـــــدَحُ بالغِنـــــاءِ

علـــى غبـــيطِ نَاقـــةٍ عـــذرَاءِ أوْ جمـــــلٍ مُســـــتوقز رُغَـــــاء

هكـــذا مَـــن عَـــاشَ فِـــي البيـــدَاءِ أمجـــادُه مـــن عبْقـــرِ الإيحَـــاء

فِـــي سَـــاحةِ الجزيـــرةِ العصْـــمَاءِ وفِـــي الثّـــرَى فـــي الهضـــبةِ الشـــمَّاء[1]

على الرغم من تحول الدلالة القديمة للناقة في القصيدة العربية إلى آلية تجسيد أزمة الإنسان في القصيدة المعاصرة، إلا أن العلاقة الوطيدة بين الشاعر والناقة لم تتحول، فقد بدا حرص الشاعر المعاصر على أن تستمر الناقة في علاقتها معه، يخوضُ بها غِمارَ التجربة ويتجاوز بها أزمته، حتى في معاناته مع القصيدة كانت حاضرةً في نسيج كلماته، ودفقاته الشعورية، ينسج بها صوره المبتكرة، كقول جاسم الصحيح:

هلمُّوا نُعَطِّرُ أُذْنَ الحياةِ

(١) محمود عارف: ديوان في عيون الليل، مطابع الروضة، ط١، ١٩٧٩م، ص١٠٧. نقلًا عن: مسعد بن عبيد العطوي: الشعر والمجتمع في المملكة العربية السعودية المعاصر، طبعة خاصة، الرياض، ط٢، ١٤١٧هـ، ص٣٢٠.

بمسكِ الوشايةِ

إنَّ الوشاية في الحبِّ مِسْكٌ!

ونحلبُ نوقَ النبوءاتِ

حتَّى جفافَ الضُروعِ(١)

حتى وإن غابت الناقة عن المشهد؛ لتحل محلها السيارة الفارهة والطائرة الفاخرة، فلا تزال حاضرةً في المشهد الشعري، تشكّل بذاتها وإيحاءاتها نسيج الصورة، يجسد فيها الشاعر نبوءاته التي لا يزال يستحلبها حتى جفاف ضرعها، وتعول تهاني الصبيح على المفردة نفسها، تقول:

أحدُو القصيدةَ بالنياقِ كأنَّنِي

بحرٌ يجرّ من الرِّمالِ سفينَا

شاهدتُ عنترةَ يُعيد لسيْفِه

لمعانَ ثغرٍ باسمٍ وحنينَا(٢)

إن القصيدة التي نهجت شريعة التجديد والتغريب في إيراد استعاراتها وكناياتها، وكسرت حاجز التقليد في البلاغة القديمة فلم تعد تسترفد صورها من مفردات البيئة كما كان، لم تستطع الفِكاك من استلهام مفردات الناقة ومرادفاتها، حتى في صورها المبتكرة، فلا تزال الناقة هي النسيج الأصيل الذي لا يتغير مع تغيّر الصورة، وقد تتغير وظيفتها ودلالتها، وقد تخلع جلدها القديم؛ لتبدو بلون يعكس الحالة النفسية للنص ويجسد رؤية مبدعه، لكنها باقية شاهدة على بقاء علاقتها بالشاعر العربي عامة والسعودي خاصة، يقول "الصحيح":

---

(١) جاسم الصحيح: الأعمال الكاملة، أطياف للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٨م، ج١، ص٥٦٥.

(٢) تهاني الصبيح: فسائل، نادي الأحساء الأدبي، ٢٠١٦م، ص٨٨.

هل كنتَ تقوَى

أن تُعيدَ صياغةَ الأقْدارِ بالأَشعَارِ

حين تخاصمتْ فيكَ القَصيدةُ والمَصيرُ

وجنَّ بينهمَا الخِصَام؟

عبثًا أثرَت المفرداتِ

فثُرن نوقًا

من معاطنِها القديمةِ في المعاجِم

وانثنينَ على حدائكَ داخل الأبدية القفراء

كنت هناك (جَمَّالًا)

يفتش في صحاري الكون عن سر به التبس الأنام[١]

تعد مغادرة القصيدة التقليدية والتّخلي عن نمطية الإبداع الفني المحض محاولةً من الشاعر المعاصر؛ للتعبير عن رؤيته وفلسفته العصرية؛ لذا يتخفف من عبء التراث اللغوي، يعوضه باستعارات متداخلة تكوّن فيما بينها صورًا تتوالد من صور، فالنوق تُثار من معاطنها القديمة، تفك من عقالها، هذه المعاقل هي في الحقيقة حبر الكتابة الأولى في معاجمنا القديمة؛ لتسير خلف حاديها الجديد متمثّلا في الشاعر، يحدوها في رحلة جديدة للتفتيش والتنقيب عن لغة يجد بها طريقه نحو هويته واكتشاف ذاته، وعلى هذا النحو، يحرص الشاعر المعاصر على توظيف الناقة جزءًا من نسيجه اللغوي الجديد، ورغم عباراته المشحونة بالتوتر والتضاد كعلاقته بالعالم حوله، فإن تموضع الناقة وسط هذه العبارات يمنح القارئ شيئا من الطمأنينة والهدوء عبر شحناتها الدلالية المؤنسة وسط هذا النسيج الغامض بفعل التشظي والتفكك.

---

(١) جاسم الصحيح، الأعمال الشعرية الكاملة، مج٢، ص٢٦١-٢٦٢.

الخاتمة

بدا من العرض السابق أن العلاقة بين الشاعر والناقة علاقةٌ عميقةٌ تضرب بجذورها في تراثنا العربي الجاهلي، حيث تبجيل البدوي لناقته؛ إذ وجد فيها دون غيرها الخِصال والسمات التي جعلتها قسيمة حياته ومؤنس وحشته في بيئة جافة قاحلة، فهي مصدر طعامه وأداة مواصلاته، عدّته وعتاده في حربه وسلامه، بها يفخر وعليها يفاخر، تؤنسه في حِلّه وارتحاله؛ لذا كانت أشرف ماله، يحوطها بالرعاية والحماية، يكرمها إلى الحد الذي يعطيها به لقبه وينسبها لاسمه، ويغار عليها فيشن لأجلها الغارات والغزوات، ونستطيع القول أنها شاركت البدوي دور البطولة في هذه الحياة الصعبة، وقد عاش الشاعر القديم هذه العلاقة فصوّرها علاقة باذخة شامخة، وبدت منذ حدا لها الحادي بأهازيج وأراجيز، وبلغت شَأْوَها حين أسس لها مقامًا محمودًا في بنية قصيدته؛ يستوقفها بالوصف ويسترحلها نحو ممدوحه، ويتوسّل بها إلى حيث غرض قصيدته، يتخذها صاحبًا يُناجيه، ويشكو له، ومؤنسًا في أسفاره، وزاجرًا لهمومه وأحزانه، قد شغفه حبها فراح يتفنن في وصف مشيتها وسرعتها وقوتها، فشغلت حيزًا كبيرًا من شِعره، كالذي شغلته من وجدانه وحياته، وامتدت هذه العلاقة امتداد عصور الشعر وتاريخه، فبقيت حاضرةً شاخصةً في شعر صدر الإسلام، والعصر الأُمَوي، والعباسي، حتى بدت ظاهرةً عامة مستقرة لا يزيدها تقدم الزمن إلا قوةً وروسخًا، وها هو الشاعر السعودي المعاصر يؤكد استمرار هذه العلاقة رغم ما أحدثته الحضارة والمدنية من قطيعة شكلية بينهما إلا أن الناقة لا زالت المعين الذي ينهل منه الشاعر صوره ورموزه وإيحاءاته، ويحرص على حضورها بعد أن حوّل دلالتها، وغيّر وظيفتها لتناسب موضوع قصيدته الجديدة، فبدت وسيلة مواصلات من نوع جديد، تبلّغه هدفه في العثور على ذاته المتشظية، وتؤمله العودة إلى هويته عبر دروب التراث، إنها الحادي نحو الوطن في عالم ضبابي لا يقيني مليء بالشك والغموض.

المصادر والمراجع

- المصادر:
- القرآن الكريم.
- ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي، وبدوي طبانه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م.
- تهاني الصبيح: فسائل، نادي الأحساء الأدبي، ٢٠١٦م.
- جاسم الصحيح: الأعمال الكاملة، أطياف للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٨م.
- جاسم عساكر: أطواق الشوك، نادي المنطقة الشرقية، الدمام، ط١، ٢٠١٤م.
- ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح وتعليق: محمد حسين، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، د.ت.
- ديوان امرئ القيس بن حجر، تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٤م.
- ديوان حسان بن ثابت، شرح وتقديم: عبد الله مهنّا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.
- ديوان عبيد بن الأبرص، شرح: أشرف عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- ديوان علقمة بن عبدة، شرح وتعليق: سعيد مكارم، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- ديوان عمرو بن قميئة، تح: خليل إبراهيم العطية، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.
- ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
- ديوان المثقب العبدي، تح: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية،

جامعة الدول العربية، ١٩٧١م.
- ديوان المسيب بن علس، تح: عبد الرحمن الوصيفي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- سعد بن شمس الميداني: مجمع الأمثال، تح: محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٧٢م.
- أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي: الأصمعيات، تح: عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ط١، د.ت.
- شهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٣٥١هـ.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت.
- محمد الثبيتي: الأعمال الكاملة، الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م
- محمود عارف: ديوان في عيون الليل، مطابع الروضة، ط١، ١٩٧٩م.
- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.
- ناجي حرابة: سفر في الذوات، خيمة المتنبي، الهفوف، ط١، ١٤٤٢هـ.
- المراجع:
- أنور عليان أبو سويلم: الإبل في الشعر الجاهلي، دراسة في علم الميثولوجيا والنقد الحديث، دار العلوم، الرياض، ١٤٠٣هـ.
- عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط٥، ١٩٩٤.
- علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم: أيام العرب في الجاهلية، المكتبة العصرية، لبنان، ٢٠٢٠م.

- علي الجندي: شعر الحرب في العصر الجاهلي، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ط٣، ١٩٦٦م.
- محمد إسماعيل الصاوي: شرح ديوان جرير، مطبعة الصاوي، مصر، ط١، د.ت.

الفهرس

العنـــــــــــوان	الصفحــة
الملخص	٢٠٣٢
المقدمة	٢٠٣٤
المحور الأول: الناقة من التجريد إلى صدر القصيدة	٢٠٣٧
المحور الثاني: الناقة وتحولات القصيدة	٢٠٥٣
الخاتمة	٢٠٦٣
المصادر والمراجع	٢٠٦٤